الأدب الشعبي من القطـري إلى العـــــالمي

Folk literature from the national to the global

الباحث/ عبد الكريـــم حمـــو
المركز الوطني للبحث في الانثرُوبولوجيـا
الاجتماعية والثقافية(crasc)- وهران
(hamou.abdelkrim@gmail.com)

ملخص البحث

هذا البحث محاولة للإجابة تساؤلات بخصوص الدور المرتقب من الأدب الشعبي الجزائري في مدّ جسور التعارف والتزاور بين الأفراد، والكشف عن الإضافة التي قدمها الأدب الشعبي الجزائري للعالم، ومان تقاطع الجانب السياحي مع التراث الشعبي، وطريق الأدب الشعبي من القطرية إلى العالمية.

Abstract

This research is an attempt to answer questions about the potential role of the Algerian folk literature in building bridges of acquaintance and regular exchanges and visits between individuals, the detection of the addendum provided by the Algerian folk literature to the world, the location of the intersection of the tourism side with the folk heritage, and the path of folk literature from national to worldwide.

Résumé

La littérature populaire
D'une littérature du territoire à une littérature mondiale

Cette recherche est une tentative qui a pour but de traiter la question du rôle probable et attendu de la littérature populaire algérienne dans la connexion des réseaux de connaissance qui aboutissent et s'actualisent en visites entre des individus, et de découvrir le surplus fourni à la littérature mondiale par la littérature populaire algérienne. Ainsi, cet article vise à mettre en lumière l'intersection du domaine de touriste avec celui de patrimoine, et celle de la passerelle d'une littérature populaire du territoire à une littérature mondiale.

المنارة للاستشارات

تصدير:

مما لا شك فيه أنّ الأدب الشعبي أو التراث اللامادي يساهم بشكل كبير في الصناعة الثقافية للأفراد والجماعات، ويبقيها كائنة مُستبصرة، تتعالق وتتعايش فيما بينها، رغم ما يمر به العالم الإنساني من تحولات تقنية ورقمية جارفة، وبرمجات إلكترونية زاحفة، فقد أبقى المجتمع المحلي على وجوده بتمسكه بطقوسه وعاداته وتقاليده الشعبية، وبأشعاره وألحانه الموسيقية... أبا عن جد.

ومن المؤكد أيضا أنّ هذا النشاط الإنساني ساهم في إذكاء الروح الثقافية والسوسيولوجية والانتربولوجية للمجتمعات، وعبَر القارات من خلال الانتشار والعالمية التي سادها، فجيئ إليه من كلّ فج لحضور الكرنافلات والأهازيج والحضرات، والاستماع إلى ما جادت به القريحة الشعبية وأبدعت.

والسؤال الذي يُطرح ههنا هو:

هل الأدب الشعبي وعاء ثقافي للأفراد والجماعات؟

أين يتقاطع الجانب السياحي مع التراث الشعبي؟

ما معنى الأدب الشعبي من القطري إلى العالمي؟

1 - تعريف التراث الشعبي أو (الفولكلور):

التراث مفهوم يتعلق بتاريخية الإنسان في تجارب ماضية، وبعيشه في حاضره، ويمهد من خلاله لمستقبله، ومعلومٌ أنّ الموروث الشعبيّ موروثٌ متجذّرٌ في تراثنا المعرفيّ، وذلك من خلال حكايات الآباء، وأخبارهم وأشعارهم، والشعر هو لسانهم الثقافيّ، إضافةً إلى فنّ السرد الحكائيّ، الذي من خلاله نشاهد أماكنهم، ونتعرّف على ثقافتهم وخبراتهم.

إن التراث الشعبي حصيلة فردية وجماعية، تعبر عن حياة الأمة بجميع شرائحها، في كافة مناطقها، ويغطى باستمرار كل احتياجات الشعب اليومية، ويبقى على الشكل والثبات من جيل إلى جيل، ويحافظ

المنارة للاستشارات

على المضمون، ويساعد على نقل الخطاب الفلسفي والروحي الموغل في القدم.

أول من استعمل كلمة فولكلور للدلالة على الآثار الشعبية القديمة هو العالم الانجليزي تومز، وقد صاغ تومز كلمة فولكلور من كلمتين هما فولك folk بمعنى الناس، أو الصنف من الناس، وهي الكلمة الانجليزية القديمة، ولور Lore بمعنى معرفة أو حكمة. فالفلكور حرفيا هو معارف الناس أو حكمة الشعب"[1].

وقد أصدر مؤتمر الفولكلور الذي عقد في أرنهيم Arnheim بهولندا سنة 1955م في توصياته تعريفا للفولكلور بالنظر إلى مادته على نه "هو المأثورات الروحية الشعبية، وبصفة عامة خاصة التراث الشفوي oral tradition، وهو أيضا العلم الذي يدرس هذه المأثورات."[2]

والفولكلور أو الثقافة التقليدية الشعبية هي جملة أعمال إبداع، نابعة من مجتمع ثقافي، وقائمة على التقاليد، تعبر عنه جماعة أو أفراد معترف بأنهم يصورون تطلعات المجتمع، وذلك بوصفه تعبيرًا عن الذاتية الثقافية والاجتماعية لذلك المجتمع، وتتناقل معاييره وقيمه شفهيًا، أو عن طريق المحاكاة، أو بغير ذلك من الطرق، وتضم أشكاله فيما تضم، اللغة والأدب والموسيقى والرقص والألعاب والأساطير والطقوس والعادات والحرف والعمارة، وغير ذلك من الفنون."[3]

2- أنواع التراث:

التراث المبني: المدن العتيقة (قسنطينة، تيبازة، بجاية، تلمسان،...)، المساجد والمدارس، ومنها: الأبواب، القصبات، القصور، الزخارف والنقوش..

التراث المسموع: الشفوي أو المسموع ويتمثل في الروايات والحكي والفنون الغنائية، ويضم الروايات والحكايات والموسيقى، مثل الموشحات الأندلسية، الحوزي، قناوي.. ورقص شعبي عيساوي، قبائلي ...).

المنارة للاستشارات

وما زال فنّ القصّ الشفهي والغناء الشفوي يُقَدَّم في بعض الساحات الرئيسية، في عدد من المدن والقرى خاصة في البادية، وتكثر في فصل الربيع، أيّام الطعم والزردات والأعياد الموسمية المعروفة بـ(الوعادي)، ونجدها بكثرة في جنوب الجزائر، وفي بعض المناطق الداخلية؛ مثل تيارت ومعسكر... ونجدها في بعض المقاهي الشعبية، وفي بعض الأسواق الأسبوعية.

التراث المكتوب: وهي الوثائق، والمخطوطات، والنصوص تاريخية؛ وتعني نقل المعرفة، من خلال الكلمة المكتوبة، لأن الكثير من تقاليدنا يمكن أن تحفظ وتنقل على مدى الأجيال القادمة عن طريق كتابتها.

أنواع الخطابات: يترسم الخطاب على فئات متنوعة من المجتمع، لتشكل في الكل عملية اتصالية مفهومة، وكلّ فئة من هؤلاء تتفاضل عن غيرها بمجموعة من الترميزات والميزات، ولعل الجدول الآتي يبرز المقصود:

نوع الخطاب / عملية الإبلاغ	خطاب نخبوي ثقافي	خطاب شعبي ثقافي	خطاب جماهيري ثقافي
ماهية الخطاب	يمتاز الخطاب النخبوي بالنوعية، والتخصص في الأسلوب وفي طريقة التفكير ويعتمد على قوة الحجة والإقناع، فهو يميل إلى العقلنة ويتحاشى العشوائية، يعتمد في رسالته على الكتابة، وعلى الأدب الرسمي، المسرح، الرسم النحت، الرواية، الزخرفة..	يمتاز الخطاب الشعبي بالعموم، ويحتاج إلى الذائقة الفنية وقوة السبك في السرد والنظم، ويميل إلى الاستطراد واللامنهج، يعتمد في رسالته على الشعر الملحون الحكاية والأسطورة، المديح...	يمتاز الخطاب الجماهيري بالفردانية وفي نفس الوقت بالجماعية، يمتاز بالذكاء والجهل، فهو منزلة بين المنزلتين يصعب تشخيصه يعتمد في رسالته إلى وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية.

المنارة للاستشارات

المضمون	جهة المتصل معلومة فهي النخبة الأكاديمية المتعلمة، سواء الأستاذ أو المؤرخ، أو الإعلامي أو الكاتب، توظف فيها المجلات والمحاضرات ووسائل الاتصال المتنوعة. لهدف التوعية والإصلاح والتربية والتثقيف.كما تكثر فيها المساءلات والمناقشات.	جهة المتصل متنوعة، فيها النخبة العالمة بنسب قليلة ونسبة كبيرة تبقى للإرهاصات الإبداعية الفردية والجماعية، سواء شعراء، مداحون، رواة. يكون التفاعل الحي ومباشر والمشاركة عن طريق اللقاءات والتجمعات الشعبية.	جهة المتصل جماهيرية هافتة صماء، غيرمنظبطة، لاتخضع للتقنين، عادة ما يكونوا في موقف استقبال، إلا في بعض الكرنفلات أو المهرجانات يثبت وجوده ويعبر عن تجربته، ويختزل كينونته منشغلا بحياته اليومية.

ملاحظة: هذا الجدول والتقسيم محاولة من صاحب المقال.

ومن ناحية أخرى فإن الواقع يدعو بإلحاح إلى ضرورة إحداث الانسجام والتكامل بين الثقافة النخبوية والشعبية وحتى الجماهيرية، واستغلال وسائل الاتصال المتنوعة، وجعل كلّ صنف من هذه الثقافات يؤدي دوره الطبيعي، واستغلال الإنسان؛ لأنه المحور الأساس لاستغلال التراث. "إن الجماعة توفّر وحدة التصور ووحدة الذات، هذه الوحدة لا تقوم فقط على المودة والانسجام، فهي متنوعة ومتنافسة، تقرّ بالسعي إلى إثبات الذات، والتعبير عن مختلف الانفعالات، غير أن هذه الانفعالات تمت جميعها بالتعاطف، وبعضها الآخر يقع تحت إطار الانضباط الذي تفرضه الروح الجماعية".[4]

إن المجتمع الجزائري عني بالحكايات والأساطير القديمة والحديثة، كما أنه ثري في مجال الرموز والمعاني ذات الدلالات والألحان والأشعار والنكت والمواويل والأبطال التاريخيين، على امتداد القرون، وفي كل المجالات، مما يشكل مصدرا لا ينضب لأعمال فنية ودرامية راقية، يعوَّل عليها كثيرا،

المنارة للاستشارات

إذ "لا يوجد إجراء ناجح لمواجهة الثقافة الجماهيرية سوى مهرجانات الفنون الشعبية، التي تساعد على الاحتفاظ على تركيبة التعددية الثقافية وما فيها من تنوع باهر، إنها تكشف عن الجماعات، وتنبعث فيها الحيوية، هذه الجماعات تعتبر استحكامات قوية لحماية الأفراد ضد غول الدول الكبرى، والمؤسسات الكبرى".[5]

3- مفهوم الأدب الشعبي:

الأدب الشعبي هو الأدب الذي يصدره الشعب، فيعبر عن وجدانه ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية، وهو دال على مجموعة من الأشكال التقليدية (الأساطير– الحكايات الخرافية – القصص– الأمثال – الأغاني – السير...)، وما يمكن تأكيده أن الأدب العربي استمد جذوره من الأدب الشعبي في مرحلة مبكرة من تطوره، مما أبقى صفات مميزة للإبداع الشعبي الشفهي بشكل ظاهر حتى الآن.

ولا شك أن اسم (الأدب الشعبي) مصطلح عربي، أي مؤلف من ألفاظ عربية خالصة، وقد ابتكر العرب هذه الصيغة، واستعار الباحثون العرب المفهوم من الكلمة الغربية (فولكلور)، والأدب الشعبي هو تراث فكري لحياة الشعوب؛ لما يتضمنه من قيم روحية، وفنون أدبية شعبية، ومما يجدر ذكره أنّ الأدب الشعبي في الاصطلاح العلمي الحديث، يشمل القصص الشعبية، التي تنتقل من جيل إلى جيل، وهو تارة على هيئة أغاريد أو قصص موسيقية راقصة، هذا الإنتاج الفني الشعبي نسمعه في الأغاني الشعبية والأغاني الدينية، والمثل السائر والرواية، والأحاجي، وحكاوى الأطفال...

خصائص الأدب الشعبي:

1- **الشفاهية:** وهي ميزة الشعر العربي، حيث كان يلقى ويحفظ مشافهة، وهو سرّ بقائه أبا عن جد.

2- **التلقائية:** بعيد عن التكلف والتصنع.

3- **البساطة:** استعمال لغة سهلة، بعيدا عن الإطناب والمنطق.

المنارة للاستشارات

4 - **الأسلوب**: لا بلاغة في الأدب الشعبي.

5- **الإيقاع**: يعتمد الشعر الشعبي على الإيقاع الملحن، الذي يميزه عن الشعر الفصيح.

6- **مجهول المؤلف**، المتوارث جيلا بعد جيل، فالمؤلف ليس فرداً ولا صوتاً واحداً، وإنما حصيلة مجموعة الأصوات والأفكار التي يتلقاها من المحيط، وتخترقه فيسجلها على الورق، بمعنى آخر فإنها لهم وليست له.

7- **الأدب الشعبي** لأية أمة هو أدبُ عاميتها التقليدي الشفاهي. والأديب لا يعبر عن ذاته بقدر ما يعبر عن الوعي الجماعي، أو قل إنه فيما يعبر عن ذاته ينضج بوعي جماعة مّا، أو طبقة ما.[6]

إذن؛ فالأدب الشعبي يلعب دورا مهمّا في المجتمع، فهو يؤدّي وظائف متعددة، أخلاقية، ترفيهية، سياحية... وأزكاها: الوظيفة الاجتماعية التي تشتغل على خلق قوالب مشتركة، وسلوكيات متراصّة، تعين المجتمع على الاحتفاظ بتماسكه، كما يؤدي وظيفة تربوية، كتربية الأجيال على حبّ الوطن، والتمسك به.

وقد ظلّ الأدب الشعبي مقرونا بالإنسان الأول، الذي برز فوق سطح الأرض، وهو الذي أطلق عليه علماء الأنتروبولوجيا اسم الإنسان البدائي، صاحب المستوى الحضاري البسيط، وقد مارس الإنسان البدائي حياته، وفرض وجوده، وشكّل ممارسات أنمت رصيده الثقافي والأدبي، فتوارثها أبناؤه عبر العصور. وقد يذاع الأدب الشعبي في مناسبات تقليدية، مثل الزواج والولادة والوفاة وأماكن العمل والتسلية[7]، والأسواق العمومية، كما يعد الأدب الشعبي اللغة الوحيدة التي لم تتقلص إلى شعار، فهو لغة ذات علاقة جدلية مع الواقع، ويتمتع بقدرة كبيرة على تفسير الواقع وتشخيصه. واللغة بحدّ ذاتها نتاج ونشاط إنساني حضاري مرتبط بالفرد، وهي إفراز إبداعي لعملية التفاهم والتواصل في المجتمعات المتحضرة، وتعد خير تعبير عن خلجات النفس الإنسانية في وصف

المنارة للاستشارات

المدنية، وحياتها الاجتماعية والاقتصادية والتجارية والأدبية والفنية والحربية، ونشاطات إنسانية أخرى.

ولعل أحسن نموذج أدبي لاح إلى العالمية والشيوع، هو فن الرواية والقصص، وإذا أردنا أن نرجع إلى منبت هذه الفنون لا نجدها تخرج عن المحيط الاجتماعي المعيش، أي أنّ البيئة الاجتماعية هي الحاضنة لهذا الفن، والرواية العربية هي من مخزون الأدب الشعبي اليومي، وهي إسهامات قومية متعددة، يساهم فيها الكاتب، من خلال التعبير عن هموم قومه وشعبه وأمته، ويقوم من خلال تقديم نماذج روائية فنية متطورة وجديدة على المستوى النفسي والاجتماعي والأسلوبي.

والرواية هي صوت الرجل البسيط، تنْقُلُ لنا في حديث شخوصها طرفاً من الحديث اليوميّ العامّي، دون أن يكون في ذلك انتقاص للعمل الروائيّ، أو إخراج له من ثقافة النخبة، فهي إذاً وسيلة ثقافية، وجزءٌ منها، وحريٌّ به أنْ يكون أحد أهمّ الروافد لها، إضافةً إلى أنّه مصدرٌ من مصادرها.

4- الثقافة:

الثقافة في مفهومها الواسع ليست مصطلحا فضفاضا، أو أطروحةً أكاديميّة، بل هي أوسع من ذلك وأشمل، إنّها منظومة من المعارف والخبرات الفطريّة والمكتسبة، والتي تتشكّل منها ثقافة الفرد منذ نعومة أظفاره إلى هرمه.

وتعد الثقافة رافدا أساسيا من روافد التنمية المحلية، والتعريف بها واجب في عالم تهدد فيه العولمة والرقمنة الرابط الروحي والعلائقي للشعوب، فما يربط الفرد والجماعة والأمة هو الاسمنت الثقافي، المسلح بالأخلاق والأعراف الكريمة، والطموحات المشتركة، وما من أمة إلا ويجب أن تكون لها مقومات تراثية وإبداعية، وتموقع كائن بين الأمم. ومن الضروري أنْ تكون هناك ثقافة سياحية لكلّ شعب يتطلع إلى أن يُؤمّن موقعه في خريطة الدول السياحية، ويُعرف بنفسه وما لديه من

المنارة للاستشارات

مقوّمات، وبهذا تصير الثقافة السياحية مورد استثمار، وعتبة اقتصادية ترفع من المستوى المعيشي للشعوب.

إنه لا يجب إغفال أهمية المهرجانات من الناحية الثقافية والاقتصادية، علما أن الكثير من هذه التظاهرات تساهم في الحوار الثقافي والمعرفي للأمم، وفي التساكن والتعايش بين الشعوب، كما تبرز الأثر الإيجابي للتعدد الثقافي. وإن هذه المهرجانات فرصة سانحة لكشف دور الثقافة والفنّ في صيرورة التنمية المستدامة، وفي الحفاظ على التراث، إلى جانب أنها أحد أساليب الجذب السياحي والمالي للبلاد.

إنه بفضل المهرجانات الموسيقية، والمعالم الأثرية، والطبيعة الفنية، أصبحت مناطق في الجزائر -تمنراست مثلاً- معروفة أكثر على الصعيد العالمي، وأصبح اسمها مدونا ضمن المهرجانات الدولية، ولتكون لنا مصداقية أكثر وننال النجاح ينبغي علينا أن نهتم بآثارنا وتراثنا وعادتنا وتقاليدنا، ويجب أن تلعب هذه المهرجانات دوراً ريادياً في التنمية، إذا هي حافظت على مصداقيتها وعكست أصالتنا الجزائرية مع تنوع للهجاتها، وتنوع لطقوسها وعاداتها. فهناك ترابط وطيد بين الثقافة والتنمية المستدامة. وإذا استطاعت الثقافة أن تساهم في التنمية السياحية والاقتصادية عموما، فهذا شيء رائع، وهذا الذي ننشده، وحينها نقول أنّ الأدب الشعبي ارتقى من الحيز القطري إلى الفضاء العالمي. ونتخلّص مما نخشاه من إحلال الثقافات الأجنبية مكان الثقافة القومية، أو ما يعرف "بعالمية الثقافة" واختزان الثقافة الأمّ والمحلية، ونبقى متبوعين ثقافيا وفكرياً للثقافة المسيطرة، وهذا عمل نشترك جميعا في معالجته على المستوى الشعبي أو الأكاديمي أو الحكومي.

خـــاتمة:

إن دراسة الأدب الشعبي هامّة ومفيدة في حياتنا الفكرية والثقافية، لأنّ الأدب الشعبي جزء هامّ من تراثنا الحضاري والثقافي، وهو بُعْدٌ من أبعاد الكيان الجمعي للأمة والمجتمع؛ فيه دونت جوانب أساسية من نظرتها للحياة والكون والمعتقد، وعبره تغنت بأفراحها وأحزانها، ومن

المنارة للاستشارات

ثم أمكن اعتباره مادة معرفية أساسية لكل باحث أراد استكناه بنية فكر الفئات الاجتماعية الواسعة، ومعرفة مكونات المخيال الجمعي الذي لم يشمل التدوين لثمراته، فظلت فنونه في دائرة الشفوي، هذا فضلا عمّا في الأدب الشعبي (الشعر، والحكاية، والأغنية) من جمالية وفنّ متميزين، وكثيرا ما اقتُبس من مثل ذلك مادة أساسية لتأليف أعمال روائية أو قصصية أو درامية ذات شأن، نالت من الشهرة والصيت قدرا هاما. ولا يصبح القول أدبًا إلا إذا صيغ صياغة فنية؛ أي حكَمت هذا القول معاييرُ فنية، وكان له ضوابط في التركيب، واتخذ شكلاً تقره الذائقة الجمالية المشتركة بين أبناء الجماعات الشعبية الذين يتناقلونه.

الهوامش والمراجع المعتمـــــــدة

(1) فوزي، العنتيل، الفولكلور ما هو؟ دراسات في التراث الشعبي، القاهرة، دار المسيرة، 1987م، المرجع نفسه، ص 15.

(2) المرجع نفسه، ص54/52.

(3) إيكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الأثنولوجيا والفولكلور، تر.محمد الجوهري، حسن الشامي، سلسلة ذاكرة الكتابة، القاهرة 1999 ص 286.

(4) عبد الرحمان عزي، الفكر الاجتماعي المعاصر والظاهرة الإعلامية الاتصالية، الجزائر شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع 1995، ص30.

(5) على عزت بيخوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، تر.محمد يوسف عدس، مؤسسة بارفايا للنشر والإعلام، 1994م، ص 167.

(6) حسن نصار، الشعر الشعبي العربي بيروت منشورات اقرا ط2 1980 ص 11.

(7) مقتطف من محاضرة ألقيت من قبل الأستاذ عبد القادر بن دعماش بتاريخ: 2010/11/24م.

المنارة للاستشارات